مَلامِح الرؤية التَاريخية عند الجَاحظ

أ. د. حسين دويدار

المشهور المتعارف عليه لدى الكثير من الباحثين أن الجاحظ كان أديباً من الطراز الأول لا يشق له غبار، وعلماً من أعلام المعتزلة البارزين.

والذي يمعن النظر في كتبه ورسائله يجد أنه لم يكتب أدباً خالصاً إلا قليلاً. فهو رجل فكر في المقام الأول «جمع بين علم الكلام والأخبار والفتيا والعربية وتأويل القرآن وأيام العرب، وله مصنفات في التوحيد وإثبات النبوة وفضائل المعتزلة»(١).

قال عنه ابن العميد : «كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً»(٢).

ولقد عبر الجاحظ عن فكره وآرائه بأسلوب أدبي رصين، فجمع بذلك بين الفكر والأدب. وجل الباحثين والدارسين قد اقتصروا على الناحية الأدبية عند الجاحظ، ولم يهتموا بالناحية الفكرية والمذهبية عنده إلا قليلاً. ولم يدر في ذهن الكثير منهم أن يعده صاحب رؤية تاريخية بالرغم من استفادتهم من كتبه ورسائله عن القرن الثلاثة الأولى للهجرة وأحداثها التاريخية، بل عن العصر الجاهلي كذلك.

لقد دُرس الجاحظ من الناحية الأدبية دراسات واسعة مستفيضة، لكنه لم يُدرس من الناحية المذهبية أو الكلامية إلا قليلاً بالرغم من أنه صاحب مذهب كلامي، وفرقة نسبت إليه من فرق المعتزلة سميت (بالجاحظية)(٣)، ولم

---

(١) طبقات المعتزلة ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) وفيات الأعيان ج.٢ ص ٤٧٣.

(٣) انظر : طبقات المعتزلة ص ٦٨، وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٧١.

يدرس من الناحية التاريخية كذلك بالرغم من أن كثيراً من كتبه ورسائله تحوي جوانب تاريخية هامة عن عصره والعصور التي سبقته.

وقد يعتقد قوم أننا بهذا نعد الجاحظ مؤرخاً بالمعنى المتعارف عليه، بمعنى أنه يهتم بتسجيل الأحداث التاريخية بحسب السنين أو الوقائع أو الموضوعات، كالطبري واليعقوبي والمسعودي وغيرهم. والواقع أنه لم يكن كذلك، وإنما كان أديباً مؤرخاً يهتم بالتاريخ الاجتماعي والفكري والحضاري أكثر من إهتمامه بالتاريخ السياسي والحربي، وتسجيل الوقائع والأحداث مثل بقية المؤرخين.

لقد كان الجاحظ صاحب فكر موسوعي وعقل خصيب هو منجم للمعطيات والمعلومات والأخبار(١). وقد سجل في كثير من كتبه ورسائله معلومات وملاحظات وإشارات هامة عن عصره الذي عاش فيه، وهو العصر العباسي الأول وبداية الثاني، وعن العصور التي سبقته. وهذه الملاحظات والإشارات ذات دلالات تاريخية لها أهميتها ـ بدون شك ـ بالنسبة للمؤرخ خاصة، وأنه اهتم كثيراً بالجدل السياسي والديني الذي كان يدور بين الفئات السياسية والاجتماعية والفرق الدينية في العصر العباسي الأول.

منهج الجاحظ في رواية الخبر التاريخي

نستطيع أن نقول : من خلال تصفحنا لكتب الجاحظ ورسائله التي وصلت إلينا : إن الجاحظ حاول أن يضع له طريقة أو منهاجاً في رواية الأخبار التاريخية أو بعبارة أخرى في قبول هذا الخبر أو رده وفي تعديله أو نقده.

والذي يمعن النظر في كتبه ورسائله ـ وخاصة السياسية منها(٢) ـ يجد إشارات واضحة لهذا المنهج في مواضع عديدة منها. فهو يرى أن المؤرخ أو

---

(١) التاريخ العربي والمؤرخون ج ١ ص ٢١٨.
(٢) انظر : رسائل الجاحظ السياسية ص ٥.

المؤلف بصفة عامة لابد أن يكون أميناً ومحايداً وموضوعياً في معالجته للأحداث ولو جهات النظر المختلفة فنجده يقول مثلاً: (واعلم أن واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلاً، ولأهل النظر مألفاً حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذي يبلغ لنفسه. حتى لو لم يقرأ القارىء من كتابه إلا مقالة خصمه لخيل إليه أنه الذي اجتباه لنفسه واختاره لدينه)(١).

ولذا فإننا نجد الجاحظ مولعاً بذكر آراء الخصوم من الفرق السياسية والدينية بإسهاب، ومجادلتهم فيها، والرد عليها بأسلوبه الذي اشتهر به من السخرية والنقد اللاذع الذي يصل أحياناً إلى حد التهكم، معتمداً في كثير من الأحيان العقل والمنطق والقياس في عبارة أدبية قوية يكثر فيها من المترادفات، وتتسم بالغموض أحياناً.

وقد أدى هذا بفريق إلى الاعتقاد أن الجاحظ لا يثبت على مبدأ، واتهامه بالتلون والتقلب والغموض والنفاق والتزلف. لكنه لا يفتأ يدافع عن نفسه ويرد على منتقديه بقوة وإسهاب، فنراه يقول مثلاً في رده على أحدهم: (وعبتني برسائلي الهاشميات واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيها، وتصويري لها في أحسن صورة، وإظهاري لها في أتم حلية، وزعمت أني خرجت بذلك من حد المعتزلة إلى حد الزيدية، ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه إلى حد الإسراف والإفراط فيه. وعبتني بحكاية قول العثمانية والضرارية وأنت تسمعني أقول في أول كتابي: وقالت العثمانية والضرارية، كما سمعتني أقول: قالت الرافضة والزيدية فحكمت علي بالنصب لحكايتي قول الثانية، فهلا حكمت علي بالتشيع لحكايتي قول الرافضة، وهلا كنت عندك من الغالية لحكايتي حجج الغالية، كما كنت عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة. وقد حكينا في كتابنا قول الإباضية والصفرية كما حكينا قول الأزارقة والزيدية... وإلا كنا عندك من الخارجية كما صرنا عندك من الضرارية والناصبة)(٢).

---

(١) الرسالة العثمانية ص ٢٣٨.
(٢) الحيوان : ج ١ ص ٧ ـ ١٢.

وهكذا كان ولع الجاحظ بنقل آراء خصومه، واستعراضها بإسهاب، وبيان حججهم، سبباً في أن يظن فريق أنه آمن بها، وأن رده عليها قد جعلهم يظنون أنه تراجع عنها، ومن ثم وصفوه بالتلون والتقلب. فأدرك خطورة ذلك على نفسه ومذهبه وعلى المجتمع العباسي المسلم حيث أخذت تنتشر فيه كثير من آراء الزنادقة والملاحدة والشعوبيين الذين أرادوا هدم الإسلام ودولته، فراح يلفت النظر إلى هذه المذاهب والآراء والنحل، ويحذر من التأثر بها، ويسوغ منهجه في التأليف بقوله: (ولولا اتكالي على انقطاع الحق عن مدى الباطل وإن استقصيته وبلغت غايته ما استجزت حكايته وقمت مقام صاحبه)(١).

والجاحظ لا يقبل بالخبر الذي لا يجيء مجيء الحجة وإنما بالخبر الصحيح: «الذي لا يعتمد بضعف الإسناد، ولا يترك لضعف الأصل، ولا يوقف فيه لكثرة المعارض والمناوىء». ويضع شرطين لصحة الخبر وهما: امتناع التباعد أو الاختلاف في الرواية، وامتناع التواطؤ والاتفاق بين الروايين. إلا أنه في كتابه (حجج النبوة) يستبعد تواطؤ كثرة الناس المختلفي الديار على الكذب(٢).

يقول في مقدمة رسالته (العثمانية): «وليس بين الأشعار وبين الأخبار فرق إذا امتنع في مجيئها وأصل مخرجها التباعد والاتفاق والتواطؤ، ولكنا ندع هذا المذهب جانباً، ونضرب عنه صفحاً اقتداراً على الحجة وثقة بالفلج والقوة»(٣).

والجاحظ يدقق في استعمال التاريخ الزمني، ويستخدم القياس. كما في تحقيقه لسن علي بن أبي طالب عند إسلامه، ويحاول أن يتوسط بين الروايات

---

(١) الرسالة العثمانية ص ٢٢٨.
(٢) الرسالة العثمانية ص ٢٢٩، ٢٣٣.
(٣) نفس المصدر ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

يقول: «لأن المقل زعم أنه أسلم وهو ابن خمس سنين، والمكثر زعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين، والقياس أن يؤخذ بأوسط الروايتين وبالأمر بين الأمرين»(١).

وهو يذكر معظم المؤرخين الأوائل من الثقات وغيرهم، كالزهري، وابن إسحاق إمامي أهل الحجاز في السير والأخبار، وقتادة البصري وسماك بن حرب الكوفي وشبرمة والقاسم بن معن وابن أبي عنبسة، والكلبي وعوانة وابن القطامي والهيثم بن عدي... إلخ(٢). مما يدل على أنه اطلع على كتبهم، وهذا يبرهن على سعة ثقافته التاريخية. ورسائله: النابتة والعثمانية، والحكمين تنطوي على تقويم للأحداث التي مر بها المسلمون في صدر الإسلام والعصر الأموي، ويعد الجاحظ عصر النبي «ﷺ» وأبي بكر وعمر وبداية عصر عثمان عهد الألفة والاجتماع والتوحد والطاعة.

ويعد الفترة الثانية من خلافة عثمان عهد الفتنة والتمرد والخلاف والنزاع بين المسلمين، وقد شجب الجاحظ قتل عثمان بالرغم من حكمه عليه بالفسق لارتكابه بعض الأخطاء كما قال، وذكر أن الفسق لا يحل القتل، لأنه وإن كان قد اقترف بعض الأخطاء إلا أن ذلك لا يبيح دمه لأن ذلك أحدث فتنة دامية بين المسلمين. وعبر عن ذلك بقوله: (لا جرم لقد احتلبوا به دماً لا تطير رغوته، ولا تسكن فورته، ولا يموت ثائره، ولا يكل طالبه، وكيف يضيع الله دم وليه والمنتقم له)(٣).

ويحاول الجاحظ في رسالتي الحكمين، والعثمانية أن يعلن حياده من علي ومعاوية، ومن جميع الفرق والأحزاب، وينفي عن نفسه تهمة التقرب والتزلف ومتابعة الهوى. يقول: (ولسنا ممن يميل في شق دون شق، ويتعصب لبعض

---

(١) الرسالة العثمانية ص ١٣٠.
(٢) رسالة النابتة ص ٤٠٥.
(٣) نفس المرجع ص ٣٨٠.

على بعض، وليس هذا الكتاب من كتب أصحاب الأهواء، ولا من كتب المتكسبين، ولا المتقربين، ولا من كتب المفلقين بالباطل، ومن جرى من النفاق على أخبث منشأ وأسوأ عادة)(١).

ويقول أيضاً : (وسنخبر عن مقالة العباسية ووجوه احتجاجهم بعد فراغنا من مقالة العثمانية بغاية ما يمكن من الاستقصاء، وإنصاف البعض من البعض لتكون أنت المختار لنفسك بعقلك)(٢).

وهو يقول عن كتابه (مناقب الترك): (وأحب أن يكون كتاباً قصيراً ومذهباً عدلاً ليس فيه إسراف في مدح قوم وهجاء آخرين، لأن الكتاب إذا كان على هذا النسق شابه الكذب والتزيد وبني على التكلف)(٣).

وهو يحذر من الأهواء، ويدعو إلى إعمال العقل في تفحص الصحيح وكشف المزيف لأن المذاهب يغلب عليها التمويه والزخرفة فتخدع وتغوي، ويبين أن موقف الناس من الفرق والأحزاب تحدده طباعهم ولا تحدده عقولهم. وهو في ذلك يميل إلى مبادىء فلسفته الطبيعية(٤).

ولكن الملاحظ أن الجاحظ رغم ذلك كله لم يتبع دائماً ذلك المنهج الذي أشار إليه في اعتماد الروايات التاريخية الموثقة، وفي إعلان الحياد والموضوعية بل خالف ذلك أحياناً وكان يلوي عنق الحقائق التاريخية، ويغير صورتها بسبب تعارضها مع وجهة نظر العباسيين السياسية، أو عدم اتفاقها مع آرائه المعتزلية. ويظهر أنه كانت هناك دوافع سياسية واعتبارات شخصية ومذهبية وراء تأليفه ووضعه لكثير من الرسائل التي كتبها، ويظهر ذلك من أسمائها مثل (الرسالة العثمانية) التي يرد فيها على حجج الشيعة ـ على لسان العثمانية

---

(١) رسالة الحكمين ص ٣٦٩، ٣٧٠.

(٢) رسالة العثمانية ص ٣٣٤.

(٣) رسالة في مناقب الترك ص ٤٩١.

(٤) الرسالة العثمانية ص ٣٢٧.

في تفضيل عليّ على أبي بكر واستحقاقه للخلافة، ويبين فيها حجج العثمانية في تفضيل أبي بكر ورسالة (الحكمين) التي يفضل فيها علياً، ويبين استحقاقه للخلافة، ويصوب رأيه. ورسالة (العباسية) التي يدافع فيها عن وجهة نظر العباسيين في استحقاقهم الخلافة عن طريق الميراث كما يقولون. ورسالة (مناقب الترك) التي قدمها للوزير التركي الفتح بن خاقان وكان قد كتبها أيام المعتصم، فلم تصل إليه لأسباب لم يذكرها. ورسالة (النابتة) التي هاجم فيها الأمويين وأنصارهم، وكتاب (خلق القرآن) الذي انتصر فيه لرأي المعتزلة في هذه المسألة... إلخ(١).

وعلى الرغم من أن الجاحظ كان موالياً للعباسيين ومناصراً لهم في نهجه السياسي كما يتجلى من خلال رسائله لا سيما (العباسية) و (فضل هاشم على عبد شمس) إلا أننا لا نوافق على قول القائلين: إن الجاحظ كان كاتباً رسمياً للعباسيين، سخر قلمه لخدمتهم والدفاع عنهم والرد على خصومهم من الأمويين وغيرهم. وإنما نعتقد أن الجاحظ كان في كثير من كتاباته ـ كما يظهر ـ يدافع عما يقتنع به من أفكار وآراء ومبادىء في حماسة شديدة، وإلا لما ظهرت كتاباته بتلك الصورة القوية البليغة التي تخلب الألباب في كثير من الأحايين. فهو يرى أن واجبه رجلَ فكر وصاحب عقيدة أن ينشر ما عنده من أفكار ومبادىء، بغية إصلاح الناس وهدايتهم إلى الصواب يقول: (حرام على كل متكلم عالم، وفقيه مطاع، وخطيب مفوه إن كان عنده من الأمر شيء إلا أن يأتيهم به ويذكرهم بما عنده)(٢).

---

(١) انظر رسائل الجاحظ السياسية والكلامية.

(٢) رسالة في التشبيه ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

بعض آراء الجاحظ التاريخية

١ ـ حول الدعوة العباسية :

يعد الجاحظ من أوائل الكتاب الذين تعرضوا لموضوع الدعوة العباسية منذ بدايتها. فقد امتدت حياته سحابة العصر العباسي الأول ومطلع العصر العباسي الثاني (عصر نفوذ القواد الأتراك). وكانت له إشارات وملاحظات هامة حولها لم يتنبه إليها كثير من المؤرخين إلا أخيراً، فهو يشير إلى استقرار العرب في قرى خراسان منذ فتحها وامتزاجتهم بسكانها الأصليين من الفرس فيقول: (وكذلك ترى أبناء العرب والأعراب الذين نزلوا خراسان لا تفصل بين من نزل أبوه بفرغانة وبين أهل فرغانة ولا ترى بينهم فرقاً(١). وهذا يكشف لنا عن خطأ الرأي السائد بين كثير من المؤرخين والكتاب المحدثين الذين فهموا مصطلح (علوج القرى) ــ الذي ورد في روايات كثيرة من المؤرخين القدامى كالطبري وغيره ـ على أنه يطلق فقط على عجم خراسان الذين ساندوا الدعوة العباسية، مما جعلهم يذهبون إلى القول بأن الدولة العباسية قد قامت على أكتاف الفرس، وهو الرأي الذي ساد ولا زال سائداً بين الكثيرين حتى الآن. والحقيقة أن الجاحظ يعد من أوائل الكتاب الذين تنبهوا إلى أن اصطلاح (أهل خراسان) ليس اصطلاحاً عرقياً وإنما هو اصطلاح حضاري فهو، لا يعني العجم من سكان هذا الإقليم، وإنما يعني كل من استوطنه من عرب وعجم(٢).

ولعل في هذا ما يفسر لنا سبب عد الجاحظ الدولة العباسية (دولة عجمية خراسانية والدولة الأموية دولة عربية أعرابية في أجناد شامية)(٣).

وهو الرأي الذي أخذه الكثيرون على ظاهره فرأوا أن الدولة الأموية

---

(١) رسالة في مناقب الترك ص ٥٠٦.

(٢) طبيعة الدعوة العباسية ص ١٧٥.

(٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٦٦.

العربية قد زالت لتحل محلها دولة العباسيين الأعجمية وفي هذا كثير من التزيد والمبالغة. صحيح أن الفرس قد أسهموا إسهاماً كبيراً في إسقاط دولة الأمويين بقيادة أبي مسلم الخراساني، وصحيح أن العباسيين قد أخذوا بالكثير من النظم والتقاليد الفارسية ولاسيما في النواحي السياسية والاجتماعية، ولكن ظلت الدولة العباسية دولة عربية؛ فإسمها عربي، وخلفاؤها عرب من بني العباس، وإذا كان بعضهم مولداً من أمهات أعجميات فقد كان بعض خلفاء بني أمية مولداً من أمهات غير عربيات: مثل يزيد الثالث، وإبراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد(١) ـ ولغتها الرسمية هي اللغة العربية. وبالرغم من أن العباسيين قد وسعوا من قاعدة الاعتماد على الموالي في كثير من وظائف الدولة وخاصة الفرس إلا أنهم ظلوا يعتمدون على العنصر العربي في المناصب الهامة. وكانت تلك سياسة حكيمة سارت عليها الدولة منذ بداية عهدها بقصد حفظ التوازن بين العناصر وخاصة بين العرب والفرس.

وبالرغم من تولية الفرس كثيراً من المناصب الهامة إلا أن العباسيين ـ وخاصة في العصر العباسي الأول ـ كانوا يسيطرون عليهم، وينكلون بهم عندما يحسون بازدياد نفوذهم، وظل العرب في هذا العصر ينزعون إلى الافتخار بأنسابهم العربية الخالصة التي لم تدخلها عجمة. كما في رسالة محمد النفس الزكية إلى الخليفة المنصور التي يقول فيها (وإني أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم أباً، لم تعرق في العجم ولم تنازع في أمهات الأولاد)(٢).

بل كان العرب إجمالاً يأنفون من تزويج بناتهم للموالي وإن كانوا من ذوي المناصب، مثل المنصور العباسي الذي رفض أن يزوج أمينة بنت علي بن عبد الله بن العباس لأبي مسلم الخراساني رغم مكانته. بل زاد ذلك من حنقه وغضبه عليه(٣).

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٥٢، العقد الفريد ج ٤ ص ٤٢٢ وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٤٣، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٢٧، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٣٣٢.
(٢) تاريخ الطبري ج ٧ ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨.
(٣) تاريخ الإسلام ج ٢ ص ١٠٠، ١٧١.

هذا فضلاً على أن بعض الموالي كانوا يحاولون أن يوجدوا لأنفسهم نسباً عربياً. وكان أمثال هؤلاء يلقون هجوماً شديداً من شعراء بني جنسهم من الشعوبيين بدافع العصبية الجنسية والبغض للعرب مثل بشار بن برد الذي يقول في أحد هؤلاء:

ارفقْ بعمروٍ إذا حركت نسبته … فإن عمراً عريبٌ من قوارير

ويقول أيضاً:

إن عمراً عربي فاعرفوه من زجاج … مظلم النسبة لا يعرف إلا بالسراج

ومثل علي بن الخليل الذي هجا صديقاً له من الفرس ادعى الانتساب للعرب فقال:

يروحُ بنسبة المولى … ويصبح يدّعي العربا
فلا هذا ولا هذا … ك يدركه إذا طلبا(١)

وحين يتحدث الجاحظ عن القوة الفاعلة والمحركة للدعوة العباسية يؤكد على العنصر العربي فيقول: «وهل أكثر النقباء إلا من صميم العرب، ومن صليبة هذا النسب كأبي عبد الحميد قحطبة بن شبيب الطائي، وأبي سليمان بن كثير الخزاعي وأبي نصر مالك بن الهيثم الخزاعي، وأبي داود خالد بن إبراهيم الذهلي، وأبي عمر لاهز بن قريظ المزني، وأبي عتبة موسى بن الكعبي، وأبي سهل القاسم بن مجاشع المزني، ومن كان يجري مجرى النقباء ولم يدخل فيهم مثل مالك بن الطواف المزني»(٢).

وعندما يتحدث عن الثورة العباسية يبين لنا بصورة واضحة كيف شارك العرب فيها فيقول: (وتفاخر العرب في قتل رجالات الدولة الأموية مثل مروان بن محمد، وكذلك هزيمة ابن هبيرة، وقتل ابن ضبارة، ونباتة بن حنظلة) ويتساءل: «وبعد فمن الذي باشر قتل مروان، ومن هزم ابن هبيرة،

(١) انظر الأغاني ج ٦ ص ١٨، ١٤٩، محاضرات الأدباء ج ١ ص ٢٢٢.
(٢) رسالة (مناقب الترك) ص ٤٨٣.

ومن قتل ابن ضبارة، ومن قتل نباتة بن حنظلة، إلا عرب الدعوة والصميم من أهل الدولة؟»(١).

بمثل هذه الأقوال كشف الجاحظ لنا عن حقائق هامة تتعلق بالدعوة والثورة العباسية ولو أن المستشرقين ومن تابعهم من المؤرخين المحدثين قد التفتوا إليها لما وقعوا في أسر التفسير العنصري للثورة، ولما أبرزوا دور الفرس وركزوا عليه في نجاحها، وغمطوا دور العرب فيها.

٢ ـ حول المجتمع العباسي :

كما قدمنا فقد وصف الجاحظ الدولة العباسية بأنها (دولة عجمية خراسانية والدولة الأموية بأنها عربية أعرابية في أجناد شامية)(٢). وقد أخذ كثير من المستشرقين والمؤرخين المحدثين هذه العبارة على ظاهرها واستنتجوا منها: أن انتصار العباسيين يعني انتصار الفرس، وأن العصر العباسي كان عصر النفوذ الفارسي سياسياً واجتماعياً وحضارياً وهذه الاستنتاجات وأمثالها بعيدة عن واقع الأمر ومبالغ فيها إلى حد كبير.

وفي اعتقادنا أن الجاحظ لم يرد بهذه العبارة تلك المعاني التي فهمها هؤلاء المؤرخون، وقد أشرنا من قبل إلى أن مصطلح أهل خراسان لم يقصد به الجاحظ العجم فقط وإنما يعني العرب الذي نزلوا هذا الإقليم واستوطنوه أيضاً بعد الفتح وصاروا من أهله. ويبدو أن ما عناه الجاحظ هو تغلغل مظاهر الحضارة الفارسية في المجتمع العباسي بصورة أوسع مما كان عليه الحال في العصر الأموي.

وإذا ما حاولنا معرفة الأصول الجنسية لسكان بغداد عاصمة الدولة العباسية وغيرها وجدناها مزيجاً من عناصر عربية وغير عربية. وهذه العناصر في مجموعها كانت ترتبط برباط يشدها إلى الدولة الجديدة وهو رباط الولاء

---

(١) انظر : البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٦٦، مناقب الترك ص ٤٨٣.
(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٦٦.

للخليفة ودولته وليس الولاء للقبيلة أو العنصر أو الإقليم(١).

ومن هذا المنطلق الإنساني الحضاري نجد الجاحظ ـ خلافاً للكثيرين ـ يعد العناصر غير العربية التي دخلت في الإسلام، وهم الموالي، فئة لا تشكل تكتلاً عنصرياً أعجمياً بل فئة ممتزجة من أجناس مختلفة تنظر إلى رابطة الولاء والانتماء للدولة الجديدة على أنها أقوى من الانتماء العنصري أو الإقليمي أو القبلي. ولننظر إليه حين يقول: (وكان المنصور ومحمد بن علي وعلي بن عبد الله يخصون مواليهم بالمواكلة والبسط والإيناس لا يبهرجون الأسود لسواده، ولا الدميم لدمامته... ويوصون بحفظ أكابر أولادهم)(٢) وهم بذلك يريدون أن تلتف قلوب الموالي حولهم، ويصير ولاؤهم لدولتهم.

والجاحظ يشير إلى امتزاج عناصر المجتمع العباسي مع بعضها حين يقول: (فالبنوي خراساني من جهة الولادة، والمولي عربي من جهة المدعى والعاقلة... وإذا كان الخراساني مولي والمولي عربي فقد صار الخراساني والبنوي والمولي والعربي واحداً)(٣).

والجاحظ يرفض فكرة العنصرية أساساً لتصنيف فئات المجتمع العباسي، ويعد البيئة والثقافة واللغة والولاء عوامل أساسية في هذا التصنيف. وعلى هذا الأساس فقد عد الموالي عرباً بالمربى والبيئة والثقافة واللغة والولاء ولننظر إليه حين يقول: (إن الموالي أقرب إلى العرب في كثير من المعاني لأنهم عرب في المدعى وفي العاقلة وفي الوراثة، وهذا تأويل قوله ﷺ: مولى القوم منهم، ومولى القوم من أنفسهم، والولاء لحمة كلحمة النسب)(٤).

---

(١) يشير ابن خلدون في مقدمة (ص ٩٦) إلى نوع جديد من الولاء ظهر في العصر العباسي وهو ما يسميه (ولاء، الاصطناع) وذلك بأن يتخذ الخليفة قوماً من الفرس أو الترك مثلاً ويمنحهم شرف الانتساب إليه، ويستخدمهم في القيام بشؤونه وحراسته، ويجري عليهم الأرزاق فيصيرون موالي لدولته.

(٢) رسالة مناقب الترك ص ٤٨٣.

(٣) المصدر السابق ص ٤٨٨ ـ ٤٩٠.

(٤) رسالة مناقب الترك ص ٤٧٧.

وهو في هذا يسير على منهج الإسلام الذي يرفض العنصرية، وينادي بالمساواة، ورائده في ذلك قول الرسول الكريم: (ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي)(١).

ويشير الجاحظ إلى فئة من فئات المجتمع العباسي وهم الأبناء، وهم قوم من العجم نزلوا بلاد اليمن لنجدة سيف بن ذي يزن ضد الأحباش، وتزوجوا من أهلها قبل الإسلام، وظلوا يتكاثرون حتى كان منهم قسم كبير في الجيش العباسي، ويوضح الترابط بينهم وبين الخراسانيين الذين ثاروا ضد الدولة الأموية فيقول على لسان أحدهم: (أنا أصلي خراسان وهي مخرج الدولة ومطلع الدعوة، وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة، وفيها بقية رجال الدعوة وأبناء الشيعة (شيعة العباسيين) وهي خراسان العراق وبيت الخلافة وموضع المادة)(٢). وقد دلت الأحداث على مشاركة هؤلاء الأبناء، ووقوفهم إلى جانب العباسيين في صراعهم ضد خصومهم ومعارضيهم. يقول الجاحظ على لسانهم: (ولنا بعد في أنفسنا ما لا ينكر من الصبر تحت ظلال السيوف القصار والرماح الطوال... إلخ)(٣).

كما تحدث الجاحظ عن عنصر السودان كثيراً، وكتب عنه رسالة بعنوان (فخر السودان على البيضان). ويبدو أنه كان لنشأته في البصرة حيث كان يكثر السودان والعبيد القادمون من شرق أفريقية أثر في ذلك. وإن كان البعض يرجع هذا الاهتمام إلى أن الجاحظ يعود في أصله إلى شرق أفريقية ويعلل ذلك بسواد لونه(٤).

ويبدو أن اهتمام الجاحظ بهذا العنصر يرجع إلى أسباب اجتماعية

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ج ١ ص ٤٠٨ ـــ ٤٠٩، تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٢ ص١٨٩.

(٢، ٣) رسالة مناقب الترك ص ٤٨٥.

(٤) شارل بلا : الجاحظ ص ٩٦.

وسياسية حيث كثرت أعداده في الدولة العباسية، وقام بعدة ثورات ضدها، كما انضم لحركات أخرى وشكل فرقة كبيرة في الجيش العباسي. وأخذ خطره يتزايد في جنوب العراق بعد ذلك حتى قام بالثورة المعروفة بثورة الزنج.

كما شهد الجاحظ أيضاً تزايد عنصر آخر في المجتمع العباسي في خلافة المعتصم وهو العنصر التركي الذي قدمه المعتصم وميزه من سائر جند الخلافة.

وقد قام الجاحظ بتأليف رسالة عن هذا العنصر بين فيها مميزاته وخصائصه وقدمها للفتح بن خاقان التركي، ولا شك أن تأليفه لهذه الرسالة كان لأغراض سياسية واجتماعية منها تهيئة الجو والمناخ الملائم لكي يتقبل الناس في المجتمع والجند في الجيش هؤلاء الترك بينهم، وإقناعهم بمزاياهم في الحرب والقتال خاصة ومدى الحاجة إليهم.

ويشير الجاحظ إلى أنه كتب هذه الرسالة بروح حيادية موضوعية، وأنه قد اجتنب فيها مذاهب الجدال والمراء واستعمال الهوى، وبين أن هدفه منها هو إنهاء الموقف المتأزم بين الجنود الأتراك وبين الفئات المناهضة لهم في المجتمع والجيش والتأليف بين قلوب الجميع. يقول: «إن ذهبنا ـ حفظك الله، بعقب هذه الاحتجاجات، وعند مقطع هذه الاستدلالات ـ نستعمل هذه المعارضة بمناقب الأتراك، والموازنة بين خصالهم وخصال كل صنف من هذه الأصناف، سلكنا في هذا الكتاب سبيل أصحاب الخصومات في كتبهم، وطريقة أصحاب الأهواء في الاختلافات الذي بينهم. وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم إن كانت مختلفة، ولنزيد الألفة إن كانت مؤتلفة»(١).

وحين يعقد الجاحظ مقارنة بين الأتراك والخراسانيين يؤكد على الجوانب الحضارية، فالفرس حضر مستقرون ذوو حضارة والترك بدو متنقلون، ولذلك لم يؤسسوا حضارة. ولكنه عندما يحس بخطر هؤلاء الأتراك على العباسيون يدعو إلى ضرورة الحذر منهم ومن تحركاتهم، وينبه العباسيين إلى ذلك،

---

(١) رسالة مناقب الترك ص ٤٨٧.

ويقارنهم بالخوارج من حيث خشونتهم وشجاعتهم وخطورتهم. وقد كان تحذير الجاحظ في محله إذ تفاقم خطرهم في أواخر العصر العباسي الأول، وسرعان ما استبدوا بالأمور في أوائل العصر العباسي الثاني مدة قرن من الزمان حتى أطلق عليه (عصر نفوذ القواد الأتراك ٢٣٢هـ ـ ٣٣٤هـ).

٣ ـ رأى الجاحظ في العباسيين :

كان الجاحظ ـ كما هو مشهور ـــ معتزلياً في مذهبه العقدي، موالياً للعباسيين في منهجه السياسي. وعلى ذلك فقد عادى أعداء المعتزلة وانتصر للعباسيين، وكتب كتباً ورسائل في الناحيتين منها، رسالته (العباسية)، وكتاب (خلق القرآن) ورسالة (التشبيه)، ويهمنا هنا أن نعرف موقف الجاحظ من العباسيين. لقد امتدح الجاحظ النهج السياسي والفكري للعباسيين ودافع عن مذهبهم في استحقاق الخلافة وأيدهم ولم ير الخروج عليهم لأنهم أئمة شرعيون فهو يقول: (وقد يجب أن نذكر بعض ما انتهى إلينا من كلام خلفائنا من ولد العباس... إلخ)(١).

وهو يمتدح الخلفاء العباسيين ويصفهم بأحسن الصفات فيقول مثلاً عن المنصور: (كان داهية أريبا، مصيباً في رأيه سديداً، مقدماً في علم الكلام، ومكثراً من كتب الآثار)(٢).

وهو ينتصر لبني العباس عند مقارنتهم ببني أمية في رسالته (فضل هاشم على عبد شمس) فيقول: «فإن قالت أمية: لنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم... قلنا لهم: ولبني هاشم هارون الواثق بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور...) ثم يقول: (فهؤلاء ثلاثة عشر سيداً لم يخرم منهم واحد ولا قصر عن الغاية، وليس منهم إلا

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٦٦.
(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٦٧.

خليفة أو موضع للخلافة... وليس هذا لأحد سواهم، ومنهم خمسة خلفاء في نسق وهم أكثر مما عدته الأموية)(١).

ويقول أيضاً (وإن أريد الموازنة بين ملوك بني العباس وملوك بني أمية في العطاء افتضح بنو أمية وناصروهم فضيحة ظاهرة. فإن نساء خلفاء بني العباس أكثر معروفاً من رجال بني أمية)(٢).

وقد استجاب الجاحظ لرغبة الخليفة المأمون ـ عندما طلب من العلماء والمفكرين في عصره أن يكتبوا في مسألة الإمامة ـ فكتب عدة كتب ورسائل في هذا الموضوع، منها كتابه الذي وصلنا (استحقاق الإمامة)، وكتب أخرى لم تصلنا مثل (حكاية قول أصناف الزيدية) و(ذكر ما بين الزيدية والرافضة)، ورسالة في بيان مذاهب الشيعة(٣).

وقد كانت هذه الكتب مثار إعجاب المأمون وسبباً في اتصال الجاحظ به وبالمعتصم والواثق من بعده، ذلك الاتصال الذي دام نحو نصف قرن من الزمن عاش فيه الجاحظ مقرباً من هؤلاء الخلفاء حائزاً على رضاهم حتى عصر المتوكل.

ويخبرنا الجاحظ عن ذلك قائلاً: (لما قرأ المأمون كتبي في الإمامة فوجدها على ما أمر به وصرت إليه. وقد كان أمر اليزيدي بالنظر فيها ليخبره عنها. قال لي: قد كان بعض من يرتضى عقله ويصدق خبره خبّرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة، وكثرة الفائدة فقلنا له: قد تربى الصفة على العيان كما أربى العيان على الصفة. وهذا كتاب لا يحتاج إلى حضور صاحبه، ولا يفتقر إلى المحتجين عنه. قد جمع استقصاء المعاني، واستيفاء جميع الحقوق. مع اللفظ الجزل والمخرج السهل. فهو سوقي ملوكي، وعاميّ خاصيّ)(٤).

---

(١) رسالة فضل هاشم على عبد شمس ص ٤١٩.
(٢) فضل هاشم علي عبد شمس ص ٤٣١ ـ ٤٣٢.
(٣) انظر رسائل الجاحظ الكلامية ص ٢٧.
(٤) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

كما يؤيد الجاحظ وجهة نظر الخلفاء العباسيين في أن الخليفة هو سلطان الله في الأرض وأن سلطته مقدسة لا يحق لأحد الاعتراض عليها لأنها مستمدة من سلطان الله(١).

٤ - رأي الجاحظ في الأمويين :

تعرض الجاحظ للأمويين وبين موقفه منهم في أكثر من رسالة وكتاب، منها كتاب أو رسالة العثمانية التي استعرض فيها الخصومة بين العلويين والأمويين ومال فيها إلى جانب العلويين، ورسالة الحكمين التي تعرض فيها للنزاع بين علي ومعاوية ومسألة التحكيم، ورسالة النابتة(٢) ورسالة بني أمية التي وصف فيها معاوية بأنه فاسق ضال لارتكابه أفعالاً مخالفة في نظره، منها جحده لحكم الرسول حين قال: (الولد للفراش وللعاهر الحجر) وذلك عندما استلحق زياد بن سمية بنسب أبيه أبي سفيان(٣)، وأنه قد غصب الحق أهله، واستبد بالخلافة وحولها إلى ملك كسروي وغصب قيصري. وسار في الرعية بغير سنة الخلفاء الراشدين. وفي رسالته (فضل هاشم على عبد شمس). وعند مقارنته بين العباسيين والأمويين يبين عظمة ملك العباسيين وقدرتهم، ويحط من كفة الأمويين وإنجازاتهم في كثير من المبالغة والتزيد.

وحين يتعرض لأنصار الأمويين الذين ظلوا على ولائهم لهم في العصر

---

(١) كما يتجلى في خطبة المنصور (أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه... إلخ) أنظر (تاريخ الطبري ج ٩ ص ٣١٠، العباسيون الأوائل ج ٢ ص ٨٣).

(٢) النابتة : هم أنصار الأمويين في العصر العباسي الذين حاولوا إعادة دولتهم ويعني بهم الجاحظ: تلك الفئة التي نبتت في عصره وأعلنت تأييدها لبني أمية وكانت لهم آراء ذات طابع ديني وسياسي منها: أنه لا يجوز سب معاوية أو لعنه لأنه صحابي وأن سبه بدعة وبغضه مخالف للسنة، وأن الإنسان مجبور في أفعاله كلها وأن الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان كالعمى والبصر، وأن كل شيء بقضاء وقدر، وقالوا بالتشبيه وقدم القرآن وأنه غير مخلوق. (رسالة النابتة ص ٢٤٥ وبعدها).

(٣) عن تحقيق مسألة نسب زياد بن أبيه أنظر العواصم من القواصم ص ٢٣٥ وبعدها.

العباسي لا يختلف كثيراً عن المؤرخين الذين كتبوا عن الأمويين في العصر العباسي، فشوهوا صورهم وطمسوا إنجازاتهم. غير أن هذا لم يمنع فئة من الناس من احترام ذكرى الأمويين وتمني دوام خلافتهم ودولتهم، ويتجلى هذا في قول أبي العطاء السندي الشاعر:

فليت جورَ بني مروانَ دام لنا وليت عدلَ بني العباس في النار(١)

والجاحظ في رسالته (النابتة) يبدي انزعاجه من استمرار هؤلاء الناس في موالاتهم لبني أمية في عصر بني العباس، ويتهمهم بالتمادي في العناد والمكابرة ويكيل الاتهامات للأمويين لينقص من قدرتهم حتى لا يظل هؤلاء على موالاتهم، وينقل في ذلك روايات شاذة وغير متواترة عن مآكلهم ومشاربهم ولهوهم وشرابهم مخالفاً بذلك ما وضعه لنفسه من منهج في التحقق من الروايات التاريخية(٢).

وحين يتحدث عن ظاهرة التسري بالجواري والغلمان في رسالته (الجواري والغلمان) ورسالة (القيان) يأتي بأمثلة مختارة من العصر الأموي وليس العباسي الذي انتشرت فيه هذه الظاهرة. ثم يطعن في بني أمية في مبالغة ممجوجة فيقول: (إنّ نساء خلفاء بني العباس أكثر معروفاً من رجال بني أمية، ولو ذكرت أم جعفر وحدها لأتى ذلك على جميع صنائع بني مروان)(٣).

كما وصف بعض خلفاء بني أمية بصفات قبيحة فقال: (كان عبد الملك جباراً لا يبالي ما يصنع، وكان الوليد مجنوناً، وكان سليمان همه بطنه وفرجه، وكان عمر أعور بين عميان ووصفهم جميعاً بالكذب حين قال: (بنو أمية كذابون فما أولاهم بالكذب)(٤) ولكنه لم يبين لنا مواطن الكذب عندهم، ولعله

---

(١) الأغاني ج ١٦ ص ٨١.

(٢) انظر في ذلك رسالة فضل هاشم على عبد شمس ص ٤٣٢ وبعدها، رسالة النابتة ص١٧.

(٣، ٤) انظر رسالة فضل هاشم على عبد شمس ص ٤٣١، ٤٣٢.

يشير في ذلك إلى تلك الدعاية السياسية التي نظمها الأمويين لضم الأتباع إليهم عن طريق القصاص والشعراء. والجاحظ في كتاباته عن الأمويين وأنصارهم لم يستخدم ولم يطبق الأسس النظرية التي وضعها في كتبه ورسائله من التثبت والاستقراء وعدم قبول الروايات دون بحث أو تمحيص بل أهملها، وبذلك حاد عن المنهج الذي رسمه، ووقع فريسة لمذهبه السياسي والعقدي فتخلى عن واجبه كاتباً محايداً وكان من الواجب عليه - وهو المعتزلي الذي يعلي من شأن العقل والمنطق - ألا يأخذ بالروايات الشاذة والمغرضة والمختلفة عن الأمويين، وأن يدرك أن تاريخ الأمويين إنما كتبه خصومهم العباسيون وفي عهدهم.

لكن يبدو أن الجاحظ - كغيره من كتاب ومؤرخي ذلك العصر - لم يكن أمامهم سوى ذلك إما رغبة أو رهبة. ولذا فإن الباحث المدقق يستطيع أن يحس بارتباك الجاحظ وتناقضه في كثير من كتاباته وملاحظاته عن الأمويين.

وقد التفت المستشرق الفرنسي (شارل بلا) إلى ذلك في دراسته للجاحظ فقال: (إن الجاحظ بعد أن ذكر نماذج من فصاحة الأمويين انقطع كلامه. ثم إن لهجته تنبيء عن ارتباكه فنستدل عندئذ على كذبه)(١).

وبالرغم مما قاله الجاحظ عن الأمويين إلا أنه في بعض الأحيان يشير إلى إعجابه بخطبهم ووصاياهم وآرائهم كما يشير إلى تحفظهم في مجالسهم فيقول: (أما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد فكان بينهم وبين الندماء ستارة وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعلونه)(٢).

كما أنه في بعض الأحيان يمتدح سياسة بعض خلفائهم مثل عبد الملك بن مروان حيث يقول: (لم يكن مثل سياسة عبد الملك والحجاج إلى أن ملك المنصور)(٣).

---

(١) الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء ص ٢٠٢.
(٢) التاج في أخلاق الملوك ص ٣٢.
(٣) التاج ص ١٦٩.

كما يروي الجاحظ رواية تدل على أن المنصور العباسي كان معجباً بسياسة هشام وتدبيره لشؤون دولته، وأنه كان يقتدي به في أكثر أموره، وأنه سمح لأحد الناس بالترحم عليه وذلك عندما سأله عن تدبيراته ضد الخوارج، كما يشير إلى صلابة مروان بن محمد في أحرج أيامه قبيل سقوط الدولة الأموية في آخر عهده(١).

ويمتدح الجاحظ سياسة بعض الولاة والقادة الأمويين وحسن تدبيرهم، من أمثال مسلمة بن عبد الملك وزياد بن أبيه والمهلب بن أبي صفرة ويزيد بن المهلب ويشيد بالفتوحات الكبيرة التي حدثت في العصر الأموي في السند وبلاد ما وراء النهر ويسميها (الفتوح العظام)(٢).

ورغم ذلك فإننا نقول: إن الجاحظ بصفة عامة أخفق في معالجته لتاريخ الأمويين بسبب تعارض عقيدته ومذهبه المعتزلي معهم(٣) وبسبب ميوله السياسية نحو العباسيين، ولم يطبق منهجه الذي أشرنا إليه في البداية.

والواقع أن الجاحظ لو كان اقتصر في مهاجمته للأمويين على أنصارهم المتطرفين من النابتة لكان في وضع قوي، ولما وقع في هذا الارتباك والتناقض بين منهجه وبين آرائه ومواقفه من الأمويين، ولكنه هاجمهم في كل ما يتصل بهم بصفة عامة، فوجد نفسه أمام مهمة صعبة، إذ كيف يمكنه أن ينكر ويدعو الناس إلى إنكار منجزات الأمويين التي كانت تضاهي بل تفوق أحياناً منجزات العباسيين حتى في عصر قوتهم وازدهار دولتهم.

٥ ـ الجاحظ والفرق الأخرى :

يورد لنا الجاحظ قول محمد بن علي بن عبد الله بن العباس إمام الدعوة

(٣) رسالة فضل هاشم على عبد شمس ص ٤٣٢، التاج ص ١١١ ـ ١١٢.

(٢) انظر البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٦، ص ٢٩٠، ص ٢٨٠ ـــ ٢٨٥، البخلاء ص ١٢، ١٤٥.

(٣) كان الأمويون لا يقفون ضد فكر فرقتي الجبرية والمرجئة عموماً لأنه كان يتناسب مع خلافتهم وظروفها وكان المعتزلة يعارضون هذا الفكر (انظر تيارات الفكر الإسلامي ص ٤٣).

العباسية لدعاته حين أراد أن يوجههم إلى الآفاق مبيناً لهم رأيه في ميول أهل الأمصار: (أما البصرة وسوادها فقد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان فليس بها من شيعتنا إلا القليل، وأما الشام فشيعة بني مروان وآل أبي سفيان، وأما الجزيرة فحرورية شارية وخارجة مارقة، ولكن عليكم بهذا الشرق ـ خراسان ـ فإن هناك صدوراً سليمة وقلوباً باسلة، لم تفسدها الأهواء، ولم تخامرها الأدواء ولم تعتقبها البدع وهم مغيظون موتورون وهناك العدد والعدة والعتاد والنجدة)(١).

ولقد تناول الجاحظ الفرق التي وجدت في عصره في كثير من كتبه ورسائله، وهو في البداية يعلن حياده من جميع الفرق والأحزاب، ويحاول استقصاء آراء كل فرقة، ويترك للقارىء الحكم عليها فيقول: (وسنخبر عن مقالة العباسية ووجوه احتجاجهم بعد فراغنا من مقالة العثمانية بغاية ما يمكن من الاستقصاء، وإنصاف البعض من بعض لتكون أنت المختار لنفسك بعقلك)(٢).

ولكن لما كان الجاحظ معتزليا في مذهبه فإننا نجده بالضرورة يقف موقف الخصم من الفرق المخالفة للمعتزلة، ويرفع المعتزلة إلى منزلة عالية فيقول: (لولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل) ويخص أستاذه النظام وأتباعه فيقول: (ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة)(٣).

وقد ألف الجاحظ عدداً من الرسائل الكلامية في بيان مذاهب الفرق الأخرى والرد عليها، مثل رسالة بيان مذاهب الشيعة، وحكاية قول أصناف الزيدية، وذكر ما بين الزيدية والرافضة، والرد على المشبهة، وفضل علم الكلام، وكتاب خلق القرآن... إلخ. وقد استطاع الجاحظ بهذه الرسائل الكلامية أن

---

(١) رسالة في مناقب الترك ص ٤٨٠.
(٢) رسالة العثمانية ص ٢٥٩.
(٣) الحيوان ج ٤ ص ٢٠٦.

يضم إليه أتباعاً تكونت منهم فرقة نسبت إليه وسميت (بالجاحظية)(١).

أما موقفه من الشيعة: فقد فرق بين المعتدلين منهم والغلاة، فلم يهاجم المعتدلين ولا سيما الزيدية منهم، وصب جام غضبه على الغلاة، ولعل في هذا انعكاساً لوجهة نظر المعتزلة التي تلتقي في كثير من الأمور مع بعض المذاهب الشيعية المعتدلة وعلى رأسها المذهب الزيدي(٢).

وتأييداً لسياسة العباسيين الذين حاولوا في بعض الأحيان تبني سياسة المهادنة مع الشيعة المعتدلين وخاصة في عهد المهدي والمأمون والمعتصم نجد الجاحظ يكتب رسالة (في الحكمين وتصويب أمير المؤمنين علي في فعله) يثبت له فيها أحقيته في الإمامة، ويبين أنه على ما تميزه به معاوية من الخصال: كالحلم والدهاء والسياسة، إلا أنه لا يستحق الإمامة لأنها: «لا تستوجب إلا بالتقدم في الفضل والسوابق على أن يكون ذلك ظاهراً ومشهوراً عند الناس، أو بالشورى، أو بالميراث، أو بالوصية، أو باجتماع القرابة وحرمة العشرة بالإضافة إلى الخصال الكريمة. ومعاوية لا ينطبق عليه وجه من هذه الوجوه الخمسة»(٣). وفي رسالته (فضل هاشم على عبد شمس) يؤكد الجاحظ أن العباسيين هم من بني هاشم، ويظهر نفسه بمظهر المدافع عنهم وعن العلويين أبناء عمومتهم عند مقابلتهم بالأمويين.

أما الغلاة من الشيعة فلم يهادنهم الجاحظ بل هاجمهم هجوماً شديداً وانتقد بشدة الخصائص والصفات الخارقة التي ينسبونها للأئمة من آل البيت(٤).

---

(١) طبقات المعتزلة ص ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) عن العلاقة بين مذهب الشيعة والمعتزلة انظر تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٣٢، ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٣) رسالة الحكمين ص ٢٩ عدد الجاحظ هذه الطرق حيث كانت تمثل آراء أهم الفرق في عصره حول مسألة الخلافة فالمعتزلة قالوا: بالفضل والسابقة، وأهل السنة قالوا: بالشورى، والعباسيون قالوا: بالقرابة والميراث، والشيعة الإمامية قالوا: بالوصية، والزيدية قالوا بالقربى والخصال الكريمة.

(٤) انظر : مجموعة رسائل الجاحظ السياسية ص ٤٠٩ وبعدها.

ولما كانت العروبة والإسلام صنوين مترابطين، وكان العرب هم حملة الإسلام ومادته الأولى فإن الشعوبية لم تهمل الإسلام بل هاجمته في قيمه ومبادئه أيضاً عن طريق الزنادقة الشعوبيين بقول الجاحظ مبيناً ارتباط الحركتين معاً: «فإنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية. فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإذا أبغض تلك اللغة، أبغض تلك الجزيرة. فلا تزال الحالات تنتقل إليه إذ كانت العرب هي التي جاءت به (أي بالإسلام) وكانوا السلف»(١).

لقد أدرك الجاحظ منذ بداية هذه الحركة الطبيعة العنصرية المتعصبة لها، فهاجمها في مواطن عديدة، وكشف عن كثير من أهدافها الحقيقية فقال: «ثم قرنوا بذلك العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم، والحمية التي لا تبقى ديناً إلا أفسدته ولا دنيا إلا أهلكتها. وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية)(٢).

كان الجاحظ على رأس طائفة المثقفين في العصر العباسي الأول المعروفين بحبهم للعرب ودفاعهم عنهم وعن دينهم وعن عروبتهم رغم أنه مولى على الأرجح، مما دفع بعضهم إلى عده من أصل عربي، يقول السندوسي عنه: «لو كان في دم الجاحظ شيء قليل أو كثير من دم الأجناس غير العربية لرأيناه على رأس الشعوبية»(٣).

غير أن الجاحظ في دفاعه عن العرب والعروبة كان إنسانياً مسلماً، فهو يهاجم العصبية الجنسية التي لم تكن في نظره يوماً من من سمات العرب المسلمين. ويذكر أمجاد العرب ومفاخرهم، ويحض على ذكر مناقبهم فيقول: «ليس للعرب في الناس نظير، وليس لقريش في العرب نظير، وليس لعبد المطلب

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٤.
(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٩ ـ ٣٠، سلسلة رسائل الجاحظ ص ١٢٢ ـ ١٢٣.
(٣) السندوبي : رسائل الجاحظ ص ٣٠٠.

في قريش نظير». ويقول: «فاذكر سادات قريش فإنهم فوق كسرى وآل كسرى»(١).

وحين يتحدث عن العرب فإنه يتحدث حديث المقتنع المتثبت المعتز بهم فيقول: «وأنا أقول في هذا قولاً، وأرجو أن يكون مرضياً، ولم أقل أرجو لأني أعلم فيه ظلاً، ولكني أخذت بآداب وجوه أهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب»(٢).

لقد ركزت الحركة الشعوبية في هجماتها العنصرية المتعصبة ضد العرب على عدة أمور منها:

الأدب العربي فانبرى لهم الجاحظ وغيره من الكتاب العرب والموالي غير الشعوبيين، فأشاد ببلاغة العرب وفصاحتهم وذكر كثيراً من أشعارهم وخطبهم ووصاياهم وأمثالهم(٣).

وقد عد الجاحظ اللغة العربية رابطة نسب تفوق رابطة الدم. وأتى بنماذج للجيل الجديد من الكتاب الموالي الذين كانت فصاحتهم بالعربية تعد من الأعاجيب. ومنها: التاريخ العربي. فقد ادعت الشعوبية أنه لم يكن للعرب تاريخ يذكر قبل الإسلام، فرد الجاحظ عليهم مؤكداً وحدة هذا التاريخ الذي يعد كل عصر فيه متمماً للآخر حتى يصير كله وحدة متكاملة.

ويؤكد الجاحظ على صفة الأمة لا القبيلة عند حديثه عن العرب، ويبين أن هذه القبائل العدنانية والقحطانية ما هي إلا مظهر من مظاهر الأمة الواحدة ذات الخصائص المشتركة فيقول: (فإن قلت كيف كان أولادهما ــ عدنان وقحطان ــ جميعاً عرباً مع اختلاف الأبوة؟ قلنا: إن العرب لما كانت واحدة

---

(١) الحيوان ج ٢ ص ٢٤٥.

(٢) الحيوان ج ٥ ص ٣٢٨.

(٣) انظر البيان والتبيين ج ٣ ص ٦ وبعدها.

فاستووا في التربة (البيئة) وفي اللغة والشمائل والهمة وفي الأنفة والحمية، وفي الأخلاق والسجية فسبكوا سبكاً واحداً وأفرغوا إفراغاً واحداً وكان القالب واحداً تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط)(١).

ومنها : أنساب العرب وأسماؤهم طعن الشعوبيون في أنساب العرب وعابوا أسماءهم مثل كلب وحجر وصخر وغيرها، وقد قيل للعتبي في ذلك: ما بال العرب سمت أبناءها بالأسماء المستقبحة وسمت عبيدها بالأسماء المستحبة، فقال: لأنها سمت أبناءها لأعدائها، وسمت عبيدها لأنفسها)(٢). ولم يدرك الشعوبيون أن للعرب مذاهب وعادات في تسمية أبنائهم كانت معروفة وسائدة لديهم كغيرهم من الشعوب الأخرى.

وقد طعن هؤلاء الشعوبيون في أنساب العرب وادعوا أن العرب في الجاهلية كانوا يغيرون على بعضهم ويسبون النساء وينكحوهن بلا عقد ولا استبراء فكيف يدرون أنسابهم ويفتخرون بها؟ كما افتخروا على العرب بأنهم من أبناء سارة الحرة ومن ولد إسحاق بخلاف العرب الذين هم من أبناء هاجر الأمة وولدها إسماعيل(٣).

وما ذكره الشعوبيون في شأن أنساب العرب تكذبه كتب التاريخ والأنساب التي تدل على مدى اهتمام العرب بأنسابهم وصحتها، وكذلك الشعر العربي الذيْ هو ديوان العرب وسجل حياتهم. يقول الجاحظ في هؤلاء الذين زعموا أنهم أشرف من العرب: (وأي شيء أغيظ لك من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك وهو يقر أنه إنما صار شريفاً بعتقك(٤).

---

(١) رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ص ٤٧٧.

(٢) الاشتقاق : ٣، ٤.

(٣) الألوسي : انظر : بلوغ الأرب ج ١ ص ١٧٣ ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٤ ص ٢٠. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٢ ص ٢٦٠.

(٤) رسائل الجاحظ ص ٢٢٩.

ويؤكد الجاحظ أن البيئة والثقافة واللغة والولاء والانتماء تعد معايير رئيسية للعروبة، فالعربي في نظره من تعلم العربية وتكلم بها واكتسب أخلاق العرب وشمائلهم وكانت ثقافته عربية وكان ولاؤه وانتماؤه للعرب، وعلى هذا فهو يجعل إسماعيل عربياً(١).

ولقد أصدر الجاحظ حكمه القوي على هؤلاء الشعوبيين المتعصبين حين قال: (ثم اعلم أنك لم تر قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبيين ولا أعدى على دينه ولا أشد استهلاكاً لعرضه ولا أطول نصباً، ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة، وقد شفى الصدور منهم طولُ جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعّر تلك النيران المضطرمة)(٢).

كما حذر من الفكر الهدام للشعوبيين والزنادقة الذين يحاولون استهواء الناس بشتى الأساليب والصور فقال: «وعلى أن للنحل صوراً كصور الناس، فكما أن بعض الصور أشد مشاكله لطبعك، وآنف في عينك، وأخف على نفسك فكذلك النحل في مقابلة الأهواء، ومشاكله الشهوات، والخفة على النفوس فاحذر حوادث الشهوات واتصال المشاكلة، فإنه أخفى من الدقيق وأدق من الخفي)(٣).

وأخيراً : فقد نجح الجاحظ وهو الكاتب المعتزلي المتسلح بالمنطق والعقل والفلسفة في الرد على هجمات الشعوبيين والزنادقة وإظهار مدى زيغهم وتعصبهم ضد العروبة والإسلام.

لقد كان الجاحظ من أشد المدافعين عن العرب والعروبة وعن الإسلام أيضاً مما جعل بعضهم يصفه بأنه يستحق لقب المدافع الأول عن العروبة ضد الشعوبية(٤).

---

(١) رسالة في مناقب الترك ص ٤٨٨.
(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٠.
(٣) رسالة العثمانية ص ٢٢٧.
(٤) مظاهر الشعوبية في الأدب العربي ص ٤٤١.

قائمة المصادر والمراجع

اتبعت في تنظيمها عدم اعتبار الملحقات (أل، ابن، أب) في اسم المؤلف أو شهرته.

أولاً : المصادر الأصلية :

١ – **ابن الأثير** : الكامل في التاريخ. دار صادر بيروت سنة ١٩٧٩م.

٢ – **الأصفهاني** : الأغاني. دار إحياء التراث العربي بيروت مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

٣ – **الألوسي** : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٢٨م.

٤ – **الجاحظ** : البخلاء. مطبعة العرفان. بيروت سنة ١٩٥٥م.

٥ – **الجاحظ** : البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون. نشر مكتبة الخانجي بمصر ١٩٨٥م.

٦ – **الجاحظ** : التاج في أخلاق الملوك. تحقيق أحمد زكي باشا. القاهرة سنة ١٩٣٢م.

٧ – **الجاحظ** : الحيوان. دار التراث العربي. بيروت د. ت.

٨ – **الجاحظ** : مجموعة رسائل الجاحظ جمع وترتيب د. علي أبو ملحم دار الهلال بيروت ١٩٨٧م.

٩ – **الجاحظ** : المحاسن والأضداد. دار إحياء العلوم. بيروت ١٩٨٦م.

١٠– **ابن خلدون** : المقدمة. المطبعة البهية بمصر د. ت.

١١– ابن خلكان : وفيات الأعي ان. تحقيق د. إحسان عباس. دار صادر بيروت د. ت.

١٢– **الخياط المعتزلي** : الانتصار والرد على ابن الرواندي الملحد. تحقيق نيبرج. بيروت سنة ١٩٦٨م.

١٣- **السيوطي** : تاريخ الخلفاء. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٥٩م.

١٤- **الشهرستاني** : الملل والنحل. تحقيق محمد سيد كيلاني. دار المعرفة بيروت سنة ١٩٨٢م.

١٥- **الطبري** : تاريخ الرسل والملوك. دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨م، دار الفكر العربي بيروت سنة ١٩٧٩م.

١٦- **ابن العربي** : العواصم من القواصم. تحقيق محب الدين الخطيب. المكتبة العلمية بيروت سنة ١٩٦٨م.

١٧- **ابن عبد ربه** : العقد الفريد. دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٩٨٢م، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

١٨- **ابن قتيبة** : عيون الأخبار. نشر دار الكتاب العربي بيروت مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

١٩- **ابن المرتضى** : طبقات المعتزلة. تحقيق سوسنة فلرز. منشورات دار الحياة بيروت د.ت.

٢٠- **المسعودي** : مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار المعرفة بيروت سنة ١٩٨٢م.

٢١- **ابن النديم** : الفهرست. دار المعرفة بيروت سنة ١٩٨٧م.

٢٢- **ياقوت الحموي** : معجم الأدباء. دار إحياء التراث العربي. بيروت سنة ١٩٨٨م.

٢٣- **اليعقوبي** : تاريخ اليعقوبي. دار صادر بيروت. سنة ١٩٨٠م.

ثانياً : المراجع الحديثة :

١ - **أحمد أمين** : ضحى الإسلام. مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٨٠م.

٢ - **د. أحمد شلبي** : موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٣ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٨٧م.

٣ – **جب** : دراسات في حضارة الإسلام. بيروت سنة ١٩٦٤م.

٤ – د. **حسن إبراهيم** : تاريخ الإسلام ج ٢. مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٨٣م.

٥ – **شارل بلا** : الجاحظ. ترجمة د. إبراهيم الكيلاني دار الفكر دمشق سنة ١٩٨٥م.

٦ – **شاكر مصطفى** : التاريخ العربي والمؤرخون. دار العلم للملايين. بيروت سنة ١٩٧٩م.

٧ – **عبد السلام هارون** : نوادر المخطوطات. مطبعة الحلبي القاهرة سنة ١٩٧٢م.

٨ – د. **عمر فروخ** : تاريخ الأدب العربي. دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٨٥م.

٩ – د. **فاروق فوزي** : طبيعة الدعوة العباسية. بيروت سنة ١٩٧٠م.

١٠– د. **فاروق فوزي** : العباسيون الأوائل. دمشق سنة ١٩٧٣م.

١١– د. **محمد عمارة** : تيارات الفكر الإسلامي. دار المستقبل العربي القاهرة سنة ١٩٨٣م.

١٢– د. **محمد نبيه حجاب** : مظاهر الشعوبية في الأدب العربي. مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٦٠م.